

جن الشعراء

نقد الرؤية الاستشراقية ونقضها

jinn poets

Criticism and the transcendence of the orientalist vision

المعطيات	المؤلف الأول	المؤلف الثاني	المؤلف الثالث
الاسم واللقب	عثمان بالفقيه		
الدرجة العلمية	أستاذ		
مخبر الانتماء	آداب وفنون متوسطة		
جامعة الانتماء	جامعة محمد الخامس		
البلد	الرباط		
البريد الإلكتروني	Belfakih40@gmail.com		
الاسم واللقب والبريد الإلكتروني للمؤلف المرسل			
الملخص باللغة العربية			
الملخص	تجيب الورقة عن سؤال الدّراسات الاستشراقية للشعر العربي، وعملها على التشكيك في اصالة النّص وامتداداته الثقافية والفنية، ومن ذلك ما قدّمهُ جولد تسهر في مقال بعنوان: "جن الشعراء"، وسنعملُ على تفكيك بنياتها الاستشراقية وإعاجدة بناء مفاهيم جديدة تستجيب لخصوصيات النّص والثقافة العربية، وكتابة سرد بديل لهذا الادعاء المتحامل.		
الكلمات المفتاحية:	الاستشراق، الثقافة، السرد البديل، جن الشعر، كولدسهر.		
الملخص باللغة الأجنبية			
ABSTRACT:	The paper answers the question of Orientalist studies of Arabic poetry, and its work on questioning the authenticity of the text and its cultural and artistic extensions, including what Gold Seher presented in an article entitled: "The Jinn of Poets", and we will work to dismantle its orientalist structures and rebuild new concepts that respond to the peculiarities of text and Arab culture. An alternative account of thisbiased claim.		
Key Words:	Orientalism, acculturation, alternative narration, gin of poetry, Coldsehr.		

مقالة جولد تسهر بعنوان " جن الشعراء " ⁽¹⁾ واحدة من أشهر دراسات المستشرقين المشككة في شعرية العرب ومصدرها، وستتيح لنا دراستها من منظور ثقافي؛ تبين معالم هذا التفكير وخصائص موضوعاته، والشعر العربي القديم موضوع مقالته، وأي قصيدة هذه الذي حفلت بها العرب وافتخرت بشعرائها؛ إن الشعر مزية العرب الأولى، وقد كانت "العجم تقيّد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون مثل بناء ازدشير، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان، وتفرّدت بالكتب والأخبار والشعر والآثار" ⁽²⁾، هذه المزية التي جعلت الشعر "علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه" ⁽³⁾.

الشعر الذي كان مزية العرب حين قوتها مقيّد آثارها وأيامها، سيصبح موضوع دراسة لدى العربي مفتخرا بتراث أسلافه، ولدى الغربي مفككا المنظور العربي للموضوعات من خلال الشعر؛ وهكذا سيغدو الشرق موضوعا للدراسة، إلا أن معالم العلمية في هذه الدراسة تتوارى أمام المنازع الاستشراقية التي تسعى إلى تكريس مفاهيم الهيمنة.

لقد استدعت دراسات المستشرقين تقديم السلطة على موضوعية الدراسة، وسنحاول من خلال هذا المقال تفكيك دراسة كولدسهر للشعر العربي، وتشكيكه في مصدر شعرية، وذلك من خلال تفكيك بنياتها وتحليل مقصدياتها الظاهرة والمضمرة، مبينين حوار السلطة والخطاب في تشكيل الرؤية الاستشراقية لقضية "جن الشعر".

1.1- إجناتس جولد تسهر

يصنّفه محمد حسن بخيت ضمن كبار المستشرقين الخطرين المتعصبين ضد الإسلام وأهله، "لا يسأمون من الزعم بأنهم يتوخون الموضوعية في أقوالهم"⁽⁴⁾، وهو مجريّ عرف بعدائه للإسلام ومن محرري دائرة المعارف الإسلامية، ومن كتبه: (الحديث في الإسلام)، و(مذاهب التفسير الإسلامي)، و(دراسات عن النبي صلى الله عليه وسلم)⁽⁵⁾، والشاهد أن دراسات كولدسهر تهدف إلى تقديم صورة عن الإسلام، هذه الصورة التي تنزع تقديم صورة غير حقيقية عن الإسلام للقارئ الغربي، وهو الأمر الذي يتحقّق كذلك في مقالته الموسومة بـ (جنّ الشعر)؛ حيث يعرض صورة نمطية عن الشرق الجاهل، الذي يفسّر أموره بمنطلقات أسطورية وقوى غيبية.

2.1- تفكيك أفكارها العامة

يستهلّ كولدسهر قوله بأن العرب فسّروا العملية الإبداعية بالقوة الغيبية التي تسكن الشاعر؛ فسمّاها العرب ب-الجن-، وعند نزول القرآن معجزاً لبلاغتهم وفصاحتهم نعتوه بالسّحر: إن هو إلا سحر يؤثر"⁽⁶⁾. ثم جعل يقف عند مجموعة من الشواهد التي تعزز طرحه هذا، ومن ذلك أن عبيدا لم يكن يكتب الشعر حتى "أتاه آتٍ بكبة شعر؛ فقال له: قم فالقاه في فمه، فقام ومنذ تلك اللحظة صار قادراً على نظم الشعر في هجاء من أهانوه في شرفه"⁽⁷⁾ والحاصل أن عبيدا لم يبدع من بنيات أفكاره؛ ولكنه تلقى الإلهام من قوى غيبية، وهو من هو في تاريخ الشعر العربي ومن شعراء المعلّقات.

لقد نحى المستشرق المزوجة بين ضرب الإسلام ومزية العرب، حيث "بقي هذا التصور لجنّي أو شيطان الشاعر زمناً طويلاً في الإسلام بعد ذلك"⁽⁸⁾، فالشاهد من هذا؛ أن نزول الإسلام لم يقطع مع هذا الزعم وإن كان يدعو إلى قطيعة مع أساطير الأولين بمختلف تجليات الأسطورة.

ثم وصل إلى العصر الأموي، فجعل يحدثنا عن شعر جرير وهو من هو في شعر النقائض، وصاحب أهجى بيت عربي:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا

لقد جرى هذا البيت كمجرى النار في الهشيم، حتى قال الراعي النميري ما سقينا ماء من مياه العرب إلا وسمعنا هذا البيت قد سبقنا إليه، وهو الأمر الذي يؤكّد قوة بيان جرير وبلاغته، حتى فسّرت بقوة جنّه وقرينه، ولمّا أحس النميري أنه جلب المذلة لبني نمير، جعل يبرّر عجزه بقوة غيبية قائلاً: "وأقسم بالله ما بلغه إنسان قط، وإن لجرير أشياعاً من الجن"⁽⁹⁾ وجرير نفسه كان يعلل قوة شعره، وقدرته على نظم الشعر قائلاً:

وجدت رقي الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ومازال المستشرق يستجمع الشواهد إلى أن بلغ العصر العباسي، وما هو ذا مجترح المقامات وسيدها الذي قال فيه الحريري: "على أن أنشئ مقامة اتلوفها تلو بعيد وإن لم يبلغ الضالع مقام الضليع (...)" هذا مع اعترافي أن البديع رحمه الله سباق غايات وصاحب آيات، وإن المتصدّي للمقامة من بعده لا يغترف إلا

من فضله ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته⁽¹⁰⁾، فالشاهد من هذا أن بديعا قد بلغا شأوا عظيما في الثقافة الإبداعية العربية، ولكن ما مصدر إبداعه؟ يرد كولدهسبير بشاهد من رسائل بديع الزمان، في سجله مع الخوارزمي:

فإذا التقينا غلب شعري شعره ونزا على شيطانه شيطاني
وفي الجمهرة أن " رجلا حاور جنيا فقال له: أتروي من أشعار العرب شيئا؟ قال نعم، سل عن أيها شئت. فقلت أنشدني لامرئ القيس وللنابغة ولعبيد بن الأبرص، ثم قال أحب أن أنشدك من شعري أنا؟ قال نعم. فاندفع ينشد لامرئ القيس والنابغة وعبيد، ثم اندفع ينشد للأعشى، فقلت: لقد سمعت بهذا الشعر منذ زمن طويل. قال للأعشى قلت: نعم. قال: فأنا صاحبه. قلت فما اسمك؟ قال مسحل السكران بن جندل، فعرفت أنه من الجن، فبت ليلة الله بها عليم، ثم قلت له: من أشعر العرب؟ قال أرو بن لافظ بن لاحظ، وهنات وهبيد وهادر بن ماهر، قلت: هذه الأسماء لا أعرفها. قال: أجل. أما لافظ فصاحب امرئ القيس، وأما هبيد فصاحب عبيد بن الأبرص، وأما هادر فصاحب زياد الذبياني، وهو الذي استنبغه فسي النابغة، ثم أسفرت لي الصبح فذهبت وتركتها⁽¹¹⁾

2. نقد القصديات ونقضها

1.2 نقد الخطاب

الشاهد مما يهمنا أن الرجل يقدم مقالة علمية فيها تفسيراً معيناً للشعر العربي، غير أن هذا الخطاب لا يمكن فهمه على حقيقته إلا إذا قاربناه في سياقه الثقافي الحضاري، فالخطاب - المقالة - مشبع بسلطة - الغرب - تحت لواء الاستشراق، وعلينا نقد الخطاب تحليلاً وتفكيكاً وكشفاً عن المقصديات التي تتوارى خلف الخطاب، وقد بدا لي أن قصديات الخطاب تتجلى في:⁽¹²⁾

أ. العرب قوم أسطورة:

إن فهم العرب للوجود كان استناداً لوعي أسطوري لا ينظر إلى الوجود باعتباره تجربة قابلة للملاحظة والتحليل والتفسير العيني، ولكن ينظرون إلى وجودهم باعتباره وجوداً أسطورياً فيه يعيشون، فيه يفكرون، ويطورون أنفسهم داخل الأسطورة لا خارجها، والأسطورة مدخل من المداخل التي من خلالها يمكن وضع الأصبع عند مكان من الجهل العربي.

ب. التكتيف الحجاجي " صدق الأسطورة "

ويبدو ذلك من خلال المصادر التي عاد إليها وعلى رأسها " الاغاني " وهو من هو هذا الكتاب في الثقافة العربية، وكذا " جمهرة أشعار العرب " وكذا العقد الفريد، رسائل بديع الزمان...، وكل هذه المؤلفات فإنها مضان وأمات كتب العرب، وإذا اشتركت هذه الكتب صارت سلطة تقرر حقيقة مفادها أن العرب قوم أسطورة.

ج. الإسلام والفهم الأسطوري:

إن استشهاد الرجل بشواهد من الجاهلية وشواهد من الأموية وشواهد من العباسيين، لم يكن من محض الصدف، ولكن الرجل يحمل مخططا واضح المعالم، ألا وهو ضرب الشعر والإسلام، والدين الذي دعا إلى نفي أساطير الأولين وعبادة الأوثان والقوى الخارقة الغيبية لم يخلص العرب من هذا البراديغم الذي ساد قبل الإسلام وبعده وفي هذا نظرة قوية إذا لم تؤكّد على حقيقة جن الشعر، أكّدت على أن الإسلام ليس له فعل في تاريخ العرب.

د. من أنبأك أن العرب أبدعوا العرب رواة⁽¹³⁾:

إن الشعر العربي هو مزية العربي الأولى، حتّى إذا تفاخرت الأقوام بما ملكت كان الشعر أهم وأثمن وأنفس ما ملك العرب، وافتخروا بمعلقاتهم على أن فيها من الحكمة شيئا كثيرا، ومن جزالة اللفظ أدبا جميلا، ومن المعاني حمولة كثيرة...، والعلوم العربية أُسِّست على هذا الشعر⁽¹⁴⁾ - النحو، البلاغة، العروض...- لكن قراءة هذا المقال بمعزل عن الرؤية السعيدية سوف تجعله حقيقة لا يشكك في صدقها، فإذا كان لذي القروح صاحبه، وكان لأبا بصير صاحبه، وكان لزهير بن أبي سلمى صاحبه...، فمن أنبأك أن العرب كتبوا شعرا، كل ما في الأمر أننا أمام قوى غيبية تنفث الشعر بلسان عربي.

2.2 - النقض والسرد البديل

إن رفضنا لحقيقة الخطاب نابع من فهم عميق بطبيعة الإبداع العربي والإنساني عموما، فاليونان قبلنا بقرون عددا كان لهم هذا الفهم الذي فسّرت من خلاله نصوص هوميروس وسوفوكل من خلال ما عرف عندهم بـ "ربّات الشعر"⁽¹⁵⁾ وآمن بها أفلاطون لضرب الشعر وتقدير العقل، فكذب الطرح الذي ساد عندهم لأمد طويل استنادا للوجوس السقراطي الأفلاطوني، وقد بدا لي نقضها من خلال:

(1) الحوليات: والشعراء منذ الجاهلية أدركوا أن القول الشعري هو جهد فردي، وإن أجود الشعر ما علّق وسميت بالحوليات لأن الحول يدور عليها وهي مدّة ليست باليسيرة من خلالها يتم التنقيح والتنقيب والاختيار والانتخال والزيادة والنقصان حتّى تصير القصيدة على ما هي عليه الآن.

(2) المخشوب والمأشوب: وهما صفتان لحالة عدم الاكتمال وسوء النظم، فخشبت النبل إذا برّيته البري الأول ولم يستو، والشعر المخشوب هو المسوّدة الأولى التي لم تحكك وتنقح، والأشائب من الناس الأخلاط، والمأشوب من الشعر كتلة الكلام الذي لم ينقح وهو ضد الصميم الخالص⁽¹⁶⁾

فقال نابغة شيبان:

إذا رحلت إلى ملك لتمدحه فارحل بشعرنقي غير مخشوب

(3) النابغة: وإذا كان النابغة له صاحب كما ذكر في جمهرة الأشعار وهو الذي استنبغه في ذبيان، ولكننا نسجل عليه الإقواء في شعره، فهل هذا المصدر الغيبي سوف يعطيه إقواء مع العلم أن الإقواء خلل في البناء وليس الإلقاء.

4) الأصمعي والأعرابي: ذكروا فيما روي في أثر الأصمعي أنه جلس في مأدبة وبجنبه أعرابيا يأكل بشراهة ونهم والسمن يسيل على لحيته، فقال له الأصمعي:

كأنك أثلّه في أرض هش أتاها وابل من بعد رش

فرد عليه الأعرابي بقوله:

كأنك بعرة في إفت كبش وذلك الكبش يمشي

فقال له: هل تقول الشعر؟ قال كيف لا أقوله وأنا أمه وأبوه، قال عندي قافية أريد ردّها وهي الواس الساكن المفتوح ما قبله، فقال له الأعرابي:

قوم بنجد عهدناهم سقاهم الله من النّوّ فقال له نوّ ماذا؟

نو تلاً في دجى ليلة مضلمة كالحة لو؟ فقال له لو ماذا؟

لو مشى فيها فارس لانتنى على الأرض منطو؟ منطو ماذا ...

فالشاهد أن الإلهام يقتضي أن تذهب إلى وادي عبقر وتقيم فيه ليالياً، والقصيدة هذه فيها الإنشاد الارتجالي المباشر أمام الجمع، وكل هذا يحيلنا على حقيقة مفادها أن الإبداع قدرة فردية وجهد خاص.

5) المعاينة: سئل الحطيئة عن أجود الشعر فقال: "خير الشعر الحولي المنقح المحكك" وقال سويد بن كراع:

فالشاهد أن تحكيك الشعر وتنقيحه يقتضي جهداً، وهو ما دلّ عليه لفظ أبييت، الذي ارتبط عادة بالمعاينة وقد أبييت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكّل"، فما يهمنّا هنا أن الشاعر يبيت على اصطلياد القوى وتصيّد أحسنها.

6) التفسير الشعبي

في الثقافة الشعبية نقول "مسخوط" فهذا اللفظ لا يعكس السخط باعتباره مثلبة وسوء تربية ولكنه دليل على القوة والشجاعة والمنقبة في أحيان كثيرة، وما قلناه نفسه ينسحب على قولنا: "أنت كالجن"، ولإثبات هذا سوف نحاول نقد هذا الطرح ونقدم من خلال شواهد تنفي هذا الزعم الغيبي.

خاتمة

بناء لما سبق يمكن القول إن الحديث عن الاستشراق باعتباره ممارسة؛ لا يعني - أبداً - أننا أمام رؤية تنظر بعين أحادية إلى الخطاب، فقد تعددت مشارب المستشرقين ومآربهم، وقد علّمنا سعيد أن نقبل

خطاباتهم الاستشراقية بمعزل عن سياقها التاريخي ومحققاتها السياسية الإيديولوجية، إننا في حاجة غلى أن نعيد خلخلة تاريخ طويل من أشكال التلقي بالإيجاب لعدد من الدراسات الاستشراقية التي اكتسبت قوتها وجعلت لنفسها مكانا في الدرس الأكاديمي - الشرق والغرب - فاستقبلناها باعتبارها حقيقة لا ريب فيها لا شيء إلا لأنها تتوارى خلف سلطة ما - عسكرية، سياسية، ثقافية، إيديولوجية ...-، والخطاب الذي اشتغلنا به تحليلًا وتفكيكا وتأويلا ونقدا ونقضا، لا يعكس حقيقة الشعر العربي ولكنه يعكس رؤيتين الأولى عبرت عنه بالجن باعتباره رمزا من رموز الموهبة⁽¹⁷⁾ والثانية - بخلفيات مبيتة - نظرت إليه باعتباره سوء فهم وقلة علم وجهل عاشت عليه العرب، وإذا كان العرب كذلك فإنهم بحاجة إلى من يمثلهم، فيكون الاستشراق بهذا المعنى طريقا ومسارا معبدا للاستعمار،

وأنا أقدم هذا البحث إذا القى أمام فئة لم تؤت من المعرفة حظا كثيرا فغن تفسيرهم لهذا لن يخرج عن طرحين، فإما أن أوصف ب - الخارق- أو أن أوصف بالمجتهد، والحقيقة الدقيقة التي آمنت بها منذ البداية واعتبرتها سردا مضادا اوردًا بالكتابة هي أن العرب اجتهدوا في نظم قوافيهم، ولم يتلقوها إلهاما.

الهوامش:

1 - مؤلفون، (1979م)، دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي؛ ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار العلم للملايين، ط1. ص238.

2 - الجاحظ عمرو بن بحر، (1986)، المحاسن والأضداد، تحقيق عاصم عيتاني، بيروت، دار إحياء العلوم، ص9.

3 - الجمحي محمد بن سلام، (د.ط/د.ت) طبقات فحول الشعراء، تج. محمود محمد شاكر، جدة، دار المدني، ص 34.

4 - محمد حسن مهدي، (2011)، الإسلام في مواجهة الفكر الاستشراقي والتبشيري، عمان، دار مجدلاوي، ط1، ص 90.

5 - المرجع نفسه ، ص100.

6 - سورة المدثر، الآية 21.

7 - دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، (م.س)، ص239.

8 - المرجع نفسه، ص240

9- دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، (م.س)، ص241

10 - الحريري.

11 - البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1/1999م. ص47

12 - هذه التجليات تعكس موقف من المقال، وهي قابلة للزيادة أو النقصان.

13 - عنوة بالرواة أنهم بتلقون الشعر من مصدر غيبي، ويروونه للناس، والناس تعتبره شعر شاعر.

14 - الشعر والنص الديني، لكن اوردنا الشعر في هذا المقام لأنه مرتبط بالفرس.

15 - ربات الشعر هي صورة مطابقة لوادي عبقر في الشعر العربي.

16 - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص53.

17 - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص50.